وقف مركز مكة العالمي للهدى القرآني
جمعية القلم للدراسات والأبحاث
مؤتمر
هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

الهدايات القرآنية في نداءات المؤمنين الخمسة في سورة الحجرات وأثرها في الرقي الأخلاقي

اسم الباحث/ـة

د/ حمود محمد حمود ردمان

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الله ﷻ قد جعل القرآن كتاب هداية للناس عامة، وللمتقين خاصة، وجعل هداياته شاملة لكل المجالات، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، فلا تقتصر هداياته على جهة دون أخرى، بل مَنْ تمسك به واتبع نوره هدي إلى صراط مستقيم، لا عوج فيه.

ومن رحمة الله بهذا الإنسان أنْ بيَّن له سبل السلام لينعم بالأمن النفسي والطمأنينة والسعادة؛ ولهذا كرر نداءه للمؤمنين في القرآن تسعًا وثمانين مرة، مع ما تحمله هذه النداءات من معاني المحبة والأنس والقرب، والتلطف والتحبب لعباده المؤمنين.

وافتتح الله ﷻ ثلاث سُوَر في القرآن بالنداء للمؤمنين، وهي المائدة والحجرات والممتحنة؛ لتضمنها على معان جليلة؛ فأما المائدة فلأنها تضمنت تفاصيل الأحكام الشرعية المتنوعة، ولا يرعاها بحق إلا المؤمنون، وأما الحجرات فإنها جاءت لتبني منظومة الأخلاق الإسلامية، ولا يمكن أن يتحلى بها ويتخلق بها سوى المؤمنين حقًّا، فافتتحت بالنداء الإلهي المحبب تهييجًا لهم أن يتخلقوا بهذه الأخلاق، ويتحلوا بهذه الصفات التي من شأنها صلاح دنياهم وأخراهم، وأما الممتحنة فقد جاءت لتؤكِّد عقيدة الولاء والبراء، فاستنكرت أن يكون في قلب المؤمن الصادق ولاء لأعداء الله، فجاءت هذه السورة لتحثَّ المؤمنين على إعلان البراء التام من أعداء الله ومما يعبدون.

وإن من اللافت للنظر أن تحتوي سورة صغيرة الحجم كالحجرات على خمسة نداءات إلهية لعباده المؤمنين، تناولت علاقتهم بكتاب الله وسنة نبيه، وأدبهم مع النبي الأكرم المعظم، وكيفية التعامل مع الأخبار، والتعامل مع المؤمنين الأخيار، ووطدت أواصر الأخوة بين المؤمنين، فذكرت عدة أمور لم تذكر في غيرها من سور القرآن؛ إذ اشتملت على جملة من الأخلاق التي ينبغي على

المؤمنين تجنبها؛ حفاظًا على أخوتهم الإسلامية من أن تصاب بثلمة تؤثر على تماسك المجتمع وقوته، وعلى سلامة صدور أفراده ونقائها، مما قد يعكر صفو أخوتهم ويفسد صفاء نفوسهم، وما يترتب على ذلك من آثار سيئة تؤدي إلى فساد دنيا الناس وآخرتهم .

ولهذا انعقد العزم لدي على إفراد هذه النداءات الخمسة في سورة الحجرات بالبحث والدراسة، لاستخراج الهدايات القرآنية المستقاة من هذه النداءات الإلهية المباركة، وبيان أثرها في الرقي الأخلاقي للأفراد والمجتمعات.

التمهيد: الموضوع الكلي لسورة الحجرات وعلاقة النداءات الخمسة به:

تتعلق أغراض سورة الحجرات بحوادث جَدَّتْ متقاربة كانت سببًا لنزول ما فيها من أحكام وآداب، لم توجد في غيرها من سور القرآن الكريم؛

أولها تعليم المسلمين بعض ما يجب عليهم من الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم في معاملته وخطابه وندائه، ووجوب صدق المسلمين فيما يخبرون به، والتثبت في نقل الخبر مطلقًا، ومجانبة أخلاق الكافرين والفاسقين، ووجوب الإصلاح بين المؤمنين، وآداب حسن المعاملة بين المسلمين في أحوالهم في السر والعلانية، والتحذير من بقايا خلق الكفر في بعض جفاة الأعراب)(١)

ويرى أصحاب "موسوعة التفسير الموضوعي" أن محور السورة يدور حول بناء المجتمع، وذلك من خلال الأسس الربانية التي تضمنها هذه السورة الكريمة، التي من شأنها أن تقيم مجتمعًا متحابًّا متآخيًا متماسكًا(٢)،

ولعل الموضوع الكلي لهذه السورة هو **بناء منظومة مكارم الأخلاق الحميدة والحفاظ على الإخوة الإسلامية.**

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٦/ ٢١٣).

(٢) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم (٣٣٤/٧).

ووضَّح الإمام الرازي الإحكام المدهش البديع بين النداءات الخمسة في هذه السورة، فذكر أن هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وهي إما مع الله تعالى، أو مع الرسول صلى الله عليه وسلم، أو مع غيرهم من أبناء الجنس، وهم على صنفين، لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين وداخلين في رتبة الطاعة أو خارجًا عنها وهو الفاسق، والداخل في طائفتهم إما أن يكون حاضرًا عندهم أو غائبًا عنهم، فهذه خمسة أقسام (١).

(١) ينظر: تفسير الرازي (٢٨/ ٩٧، ٩٨).

المبحث الأول: الهدايات القرآنية المتعلقة بتعظيم أوامر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وأثرها في الرقي الأخلاقي

وهذا ما تضمنه النداء الأول، وهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الحجرات: ١]، فافتتح الله ﷻ سورة الحجرات بهذا النداء الكريم للتنبيه على أهمية ما يرد بعد ذلك النداء لتترقبه أسماعهم بشوق، ووصفهم بوصف الإيمان؛ لأنهم أولى الناس بالامتثال لأوامر الله ورسوله وتعظيمها(١)، ولإيضاح هذا النداء ومقتضياته الأخلاقية، سأبدأ بتحليل ألفاظه، وبيان معانيها باختصار؛ تمهيدًا لاستنباط الهدايات القرآنية منها:

المطلب الأول: التفسير الإجمالي للنداء الأول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [الحجرات: ١].

لعلماء التفسير في (لا تقدموا) ثلاثة أوجه: **الأول** منها وهو أصحها وأظهرها: أنه مضارع قَدَّمَ، اللازمة بمعنى تقدَّم، ومنه مقدِّمة الجيش، ويدل لهذا الوجه قراءة يعقوب: (لا تَقَدَّموا) بفتح التاء والدال المشددة.

الوجه الثاني: أنه مضارع قَدَّمَ، المتعدي، والمفعول محذوف لإرادة التعميم، أي لا تقدِّموا قولًا ولا فعلًا بين يدي الله ورسوله، بل أمسكوا عن ذلك حتى تصدروا فيه عن أمر الله ورسوله.

الوجه الثالث: أنه مضارع قَدَّمَ، المتعدي، ولكنها أجريت مجرى اللازم، وقَطَعَ النظر عن وقوعها على مفعولها؛ لأن المراد هو أصل الفعل دون وقوعه على مفعوله، أي: لا تكونوا من المتَّصفين بالتقديم (٢) فحذف المفعول ليعم كل صور التقديم المذمومة، أو ليتوجه النهي إلى الفعل ذاته (التقدم).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢١٥).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٦٤٩، ٦٥٠).

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]: وهذا ختم جميل لهذا النداء؛ إذ أمر الله عباده أن يلزموا التقوى التي تمنعهم من التقدم بين يدي الله رسوله في صغيرة أو كبيرة (١)، وتذييل الختم بالاسمين العظيمين ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ؛ حتى يراقبوا الذي يسمع كلامهم، ويعلم ما تكن صدورهم مما لم يتكلموا به مما يدخل ضمن دائرة التقديم بين يدي الله ورسوله، من التذمر من حكم الله ورسوله وقضائهما، وعدم الرضا به، فإن الله يعلم ذلك كله.

بعض صور التقديم بين يدي الله ورسوله:

عرض السادة المفسرون عند تفسير هذه الآية عددًا من الأقوال التفسيرية التي يمكن أن تعدَّ من صور التقديم بين يدي الله ورسوله، وذلك أن تفسير بعضهم هذه الآية كان من قبيل التفسير بالمثال،

وهذا يجعلنا نستثمر هذه الأقوال في تَعداد صور هذا التقديم المذموم بين يدي الله ورسوله، وإعطاء صورة متكاملة عنه:

الصورة الأولى: الأقوال التي تخالف الكتاب والسنة بأي صورة من صور المخالفة؛ صغرت أو كبرت:

وهذه الصورة نلمحها من تفسير ابن عباس رضي الله عنهما؛ إذ قال: «لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة»(٢).

ففسَّر النهي عن التقديم بالأقوال التي تخالف كتاب الله وسنة رسوله، وهذا من قبيل التفسير بالمثال، إذ إن ما يخالف الكتاب والسنة يعد صورة من صورة التقديم المذموم، وقد نقل عن ابن عباس أيضًا أن كان يقول: «نُهُوا أن يتكلموا بين يدي كلامه» (٣)، فعاد إلى القول بالتعميم، حتى وإن كان التقديم بين

(١) ينظر: الكشاف(٤/ ٣٥١).
(٢) تفسير الطبري (٢٢/ ٢٧٢).
(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١٠/٣٣٠٢).

يدي الله ورسوله مجرد كلام يتفوه به أحدهم بين يدي كلامه، بغضِّ النظر عن كونه مخالفًا للكتاب والسنة أو غير مخالف.

الصورة الثانية: تقديم مقترحات لأمور شرعية قبل أن يقضي الله ورسوله، أو قبل معرفة حكم الله ورسوله:

وهذه الصورة نستنبطها من كلام مجاهد؛ إذ قال: «لا تفتاتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء حتى يقضيه الله على لسانه» (١)، فنهاهم أن يستبقوا الأمور قبل قضاء الله ورسوله، وقد يتجرأ بعضهم فيريد أن ينزل القرآن وفق هواه، ومصدقًا لرأيه، ولهذا قال قتادة: «إن ناسا كانوا يقولون، لولا أنزل في كذا ، لولا أنزل في كذا»(٢).

ويدخل في ذلك دخولًا أوليًّا تشريع ما لم يأذن به الله، وتحريم ما لم يحرمه، وتحليل ما لم يحلله؛ لأنه لا حرام إلا ما حرمه الله ولا حلال إلا ما أحله الله، ولا دين إلا ما شرعه الله (٣).

الصورة الثالثة: التقديم بين يدي الله ورسوله في الأمور المتعلقة بالحرب وشؤونها:

وهناك من قصر هذا التقديم بين يدي الله ورسوله في حالة الحرب والقتال من أمور لا يقضى فيها إلا بوحي، أو بقول من أهل الرأي والخِبرة، فذكر الضحاك أن المراد بذلك في القتال، وكل ما كان من أمورهم لا يصلح أن يقضى فيه إلا بأمره(٤)، فجعل الضحاك من صور التقديم المذموم الافتيات في أمور الحرب، مما لا ينبغي لهم الخوض فيها؛ نظرًا لتوقفها على القيادة العليا التي تقدِّر الأمور

(١) تفسير مجاهد (ص: ٦١٠).
(٢) تفسير عبد الرزاق (٢١٨/٣).
(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٦٥٠).
(٤) تفسير الطبري (٢٢/ ٢٧٦).

بقدرها، وتعرف المآلات، فهذه أمور ترتبط بها مصالح الأمة الكبرى، ولا يبتُّ فيها فئام الناس، ولا يقبل فيها الآراء الصادرة من غير أهلها.

الصورة الرابعة: المبادرة بالإجابة عن سؤال في مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم:

وهذه الصورة ذكرها الزمخشري بعد أن ذكر احتمال كون الآية عامة في كل قول وفعل، فقال: «ويدخل فيه أنه إذا جرت مسألة في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسبقوه بالجواب»(١).

الصورة الخامسة: الحكم بلا اقتداء ومتابعة لمن تلزمه متابعته:

فمن صور التقدم بين يدي الله ورسوله أن يقول الإنسان قولًا يُحكم به بين عباد الله أو في عباد الله، وليس من شريعة الله، مثل أن يقول: هذا حرام، أو هذا حلال، أو هذا واجب، أو هذا مستحب بدون دليل(٢).

الصورة السادسة: البدع بجميع أنواعها:

تعد البدع من صور التقدم بين يدي الله ورسوله، بل هي أشد أنواع التقدم؛ لأن حقيقة حال المبتدع أنه يستدرك على الله ورسوله ما فات، مما يدعي أنه شرع،

كأنه يقول: إن الشريعة لم تكمل، وأنه كملها بما أتى به من البدعة(٣).

المطلب الثاني: الهدايات القرآنية في النداء الأول وأثرها في الرقي الأخلاقي

إن علماء التفسير وأرباب الأخلاق والسلوك

قد قدَّموا لنا هدايات رائعة استنبطوها من هذا النداء الإلهي الذي افتتح به هذه السورة العظيمة، ويمكن **تلخيص ما ذكروه في النقاط الآتية:**

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٢٧٦).
(٢) ينظر: تفسير العثيمين: الحجرات – الحديد (ص١١).
(٣) ينظر: تفسير العثيمين: الحجرات – الحديد (ص٨).

١. **تدريب النفوس التي قصَّرت في التعامل الصحيح بين يدي الله ورسوله، وإرشادها إلى التحلي بالتفويض المطلق لله ورسوله:**

فقد كانت عادة العرب الاشتراك في الآراء، وأن يتكلم كلٌّ بما شاء ويفعل ما أحب، فمشى بعض الناس ممن لم تتمرن نفسه مع النبي صلى الله عليه وسلم على بعض ذلك، فربما قال قوم: لو نزل كذا وكذا في معنى كذا وكذا وينبغي أن يكون كذا، -وأيضًا- فإن قومًا ذبحوا ضحاياهم قبل النبي صلى الله عليه وسلم، وقومًا فعلوا في بعض حروبه وغزواته أشياء بآرائهم، فنزلت هذه الآية ناهية عن جميع ذلك (١).

٢. **أن القول الأول والقول الفصل هو لله ولرسوله، ولحكم الله ورسوله:**

فقد أدَّب الله عباده المؤمنين مخاطبًا إياهم: ألا تقولوا قبل أن يقول، فإذا قال فأقبلوا عليه ناصتين له، مستمعين إليه، واتقوا الله في إهمال حقه، وتضييع حرمته (٢).

٣. **الانضباط على فعل الطاعات في وقتها، بلا تقديم ولا تأخير، وكذلك الحرص على تأدية السنن في وقتها، وما في ذلك من أثر على سلوك الفرد وأخلاقه:**

إن الانضباط وتطويع النفس عليه يساعد في التعود على الأخلاق الحسنة والأفعال الحميدة، وهذا ينعكس بدوره على سلامة المجتمع ورُقِيِّه وبلوغه المكانة الأسمى بين المجتمعات التي تنعم بالأمن والسكينة بين أفرادها، ويفهم من الآية أن كل عبادة مؤقتة بوقت لا يجوز تقديمها عليه، كالصلاة والصوم والحج، واختلف في تقديم الزكاة عن وقت وجوبها، فأجازه قوم، ومنعه آخرون، وقد

(١) ينظر: المحرر الوجيز(٥/١٤٤).

(٢) ينظر: تفسير التستري (ص: ١٤٩).

اعتمد الذين أجازوا تقديمها على وقتها على فعل النبي صلى الله عليه وسلم، فقد استعجل من العباس رضي الله عنه صدقة عامين، وأنه صلى الله عليه وسلم قد أقرَّ جمع زكاة الفطر قبل يوم الفطر، حتى تعطى لمستحقيها قبل يوم الوجوب، وهو يوم عيد الفطر(١).

٤. **النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله ومخالفة النبي** صلى الله عليه وسلم **في كل قول أو فعل:**

وهذا مأخوذ من عموم الآية، وقد طبقت ذلك بشكل عملي السيدة عائشة -رضي الله عنها-، عندما دخل عليها مسروق، فأمرت الجارية أن تسقيه، فقال: إني صائم -وهو اليوم الذي يشك فيه- فقالت له: قد نُهِي عن هذا، وتلت قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١] في صيام ولا غيره»، قال الماتريدي: اعتبرت عائشة رضي الله عنها عموم الآية (٢)، وهذه الهداية تؤسِّس لنهج قويم في التعامل مع سنة النبي صلى الله عليه وسلم، فلا يأت من يتطلَّب دليلًا خاصًّا على كل جزئية من الجزئيات، بل إن عموم الآيات والأحاديث تشمل جميع الحالات المشابهة، إلا فيما ورد الدليل على التخصيص، كما أن هذه الهداية تضبط بوصلة أخلاق الأمة خصوصًا الشباب، فتحمي من الانزلاق في الفهم الخطأ لنصوص الشريعة؛ نتيجة لسوء التعامل مع هذه النصوص العامة التي نزلت في سبب مخصوص، فيظنون أنها لا تشمل القضايا الجزئية الأخرى، وأنه لا بدَّ من وجود دليل خاص لكل فرد من أفراد العموم، وهذا من عظيم فقه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حين طبقت عموم الآية في نهي مسروق عن صيام الشك؛

(١) ينظر: التفسير الوسيط – مجمع البحوث (٩/ ١٠٢٧).
(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/ ٣١).

اعتدادًا بعموم آية سورة الحجرات، بالرغم من وجود دليل خاص ينهى عن صيامه؛ لتبين له صورة من صور التقدم بين يدي الله ورسوله.

٥. وجوب معرفة حكم الله ورسوله في كل الأعمال قبل البدء بها:

فهذه الآية تؤيد قول الفقهاء: إن المكلف لا يُقْدِم على فعل حتى يعلم حكم الله فيه، وعدَّ الغزالي العلم بحكم ما يُقْدِم عليه المكلف من قِسم العلوم التي هي فرض على الأعيان الذين تعرض لهم (١).

٦. أن عدم التقدم بين يدي الله ورسوله طابع إسلامي رفيع:

فمع تقرير كون واجب تكريم النبي صلى الله عليه وسلم لا يدانيه واجب وكون الآيات خاصة بشخصه الكريم، فإن هذا لا يمنع من أن يقال –والله أعلم– إن التأديب الرفيع الذي احتوته الآيات يصح أن يكون أدبًا عامًّا وطابعًا من طوابع الأدب الإسلامي (٢).

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢١٦).

(٢) ينظر: التفسير الحديث (٨/ ٥٠٠).

المبحث الثاني: الهدايات القرآنية المتعلقة بأدب التعامل مع النبي صلى الله عليه وسلم، وتعظيم سنته، وأثرها في الرقي الأخلاقي

لما كان النداء الأول لبيان كيفية التعامل مع أوامر الله ورسوله، أتبعه بالنداء الثاني ليبين الأدب الراقي مع رسول الله، المبلِّغ لأوامر الله، ومن فوائد إعادة هذا النداء: زيادة الشفقة على المسترشد؛ لأن النداء لتنبيه المنادى ليُقبل على استماع الكلام، وبيان أن كل واحد من الكلامين مقصود، وليس الثاني تأكيدًا للأول(١).

المطلب الأول: التفسير الإجمالي للنداء الثاني:

النداء الثاني في سورة الحجرات هو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]. استبعد الماتريدي أن يكون المراد بهذا النداء الذين صحبوا رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم واتبعوا أمره ونهيه؛ إذ لا يحتمل منهم أن يرفعوا أصواتهم فوق صوته ويجهروا له بالقول أو يقدموا بين يديه في أمر ولا نهي إلا عن سهو، أو غفلة، أو إذن منه بالمناظرة والمحاورة في العلم؛ لأن رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم كان أجلَّ في قلوبهم وأعظم قدرًا من أن يتجاسروا التقدم بين يديه بأمر، أو قول، أو رفع صوت، أو جهر القول له (٢).﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]. أي :«لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت رسول الله تتجهَّمونه بالكلام، وتغلظون له في الخطاب» (٣)،

(١) ينظر: تفسير الرازي (٢٨/ ٩٢، ٩٣).
(٢) ينظر: تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٩/ ٣٢٣، ٣٢٤).
(٣) تفسير الطبري (٢٢/ ٢٧٧).

وقوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ يحتمل وجوها:

أحدها: أن يكون المراد حقيقته، وذلك لأن رفع الصوت دليل قلة الاحتشام وترك الاحترام.

ثانيها: أن يكون المراد المنع من كثرة الكلام ومزيد اللغط.

ثالثها: أن يكون المراد رفع الكلام بالتعظيم أي: لا تجعلوا لكلامكم ارتفاعًا على كلام النبي صلى الله عليه وسلم (١).

﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ﴾ [الحجرات: ٢]:

وهذا هو الأدب الثاني بعد نهيهم عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي، فلما حصل المنع من أن يجعل الإنسان كلامه أو صوته أعلى من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وصوته، منعت المساواة فقال تعالى: ولا تجهروا له كما تجهرون لأقرانكم ونظرائكم، بل اجعلوا كلمته عليًّا (٢)، والمعنى: لا تدعوه باسمه يا محمد ويا ابن عبد الله كما يدعو الرجل منكم باسمه، ولكن عظِّموه وفخموه وقولوا له: يا رسول الله، ويا نبي الله» (٣).

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]: ذكر هذا؛ ليكونوا أبدًا متيقظين بين يدي رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم حذرين، معظمين له في كل وقت؛ لئلا يكون منهم في وقت من الأوقات ما يجري مجرى الاستخفاف به والتهاون على السهو والغفلة فيحبط ذلك أعمالهم؛ لأن هذا الصنيع برسول اللَّه صلى الله عليه وسلم يَكْفُر صاحبه، ولا يكون معذورًا، وإن فعله على السهو والغفلة؛ لأن له قدرة الاحتراز(٤).

---

(١) ينظر: تفسير الرازي (٢٨/ ٩٢، ٩٣).

(٢) تفسير الرازي (٢٨/ ٩٣).

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان (٤/ ٩٠).

(٤) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٩/ ٣٢٤).

المطلب الثاني: الهدايات القرآنية في النداء الثاني وأثرها في الرقي الأخلاقي

١. بعض صور رفع الصوت فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم:

هناك صور ذكرها المفسرون لرفع الصوت فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم، **أهمها ما يأتي:**

الصورة الأولى: رفع الصوت في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم:

فعن السائب بن يزيد قال: كنت نائمًا في المسجد، فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: اذهب فأتني بهذين، فجئته بهما، فقال: من أنتما؟ أو من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف. قال: «لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، أترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم» (١).

الصورة الثانية: رفع الصوت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم:

قال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره، كما كان يكره في حياته؛ لأنه محترم حيًّا وفي قبره، صلوات الله وسلامه عليه، دائما (٢)، وبه تعلم أن ما جرت به العادة اليوم من اجتماع الناس قرب قبره –صلى الله عليه وسلم– وهم في صخب ولغط وأصواتهم مرتفعة، كله لا يجوز ولا يليق، وإقرارهم عليه من المنكر (٣).

الصورة الثالثة: الخوض في أبوي النبي –صلى الله عليه وسلم– وفي آل بيته بما يعلم أنه يؤذيه لو كان حيًّا:

فقد عدَّها بعض المفسرين من صور رفع الصوت فوق صوت النبي(٤).

الصورة الرابعة: رفع الصوت بحضرة العلماء:

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (١/ ١٧٩).
(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٦٨).
(٣) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٤٠٣).
(٤) ينظر: تفسير المراغي (١٠/ ١٤٨).

كره جماعة من العلماء رفع الصوت في مواطن منها: بحضرة العلماء؛ تشريفًا للعلم؛ إذ العلماء ورثة الأنبياء، وممن قال بذلك المهدوي والقرطبي (١)، واستدل البقاعي بهذه الآية على أن أذى العلماء الذين هيَّأهم الله ﷻ لتلقي فَهْم دينه عنه شديدٌ جدًّا، فإن تكدير أوقاتهم يمنعهم عن كثير من ذلك» (٢).

الصورة الخامسة: رفع الصوت عند قراءة حديث النبي صلى الله عليه وسلم وفي المساجد:

استُدل بهذه الآية على كراهية رفع الصوت **بحضرة العالم، وفي المساجد** (٣)، وذكر ابن العربي أن كلام النبي صلى الله عليه وسلم المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه؛ فإذا قرئ كلامه **وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه، ولا يعرض عنه،** كما كان يلزمه ذلك عند تلفظه به،

وقد نبه الله تعالى على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠٤]،

وكلام النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي وله من الحرمة مثل ما للقرآن إلا معاني مستثناة، بيانها في كتب الفقه(٤).

٢. تعظيم رسول الله وخفض الصوت في حضرته:

ففي الآية الأمر بتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوقيره، وخفض الصوت بحضرته وعند مخاطبته، فأمرهم بحفظ حرمته، ومراعاة الأدب في خدمته وصحبته، وألَّا ينظروا إليه بالعين التي ينظرون بها إلى أمثالهم.

(١) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية (١١/ ٦٩٨٨)؛ تفسير القرطبي (١٦/ ٣٠٧).
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٨/ ٣٥٦).
(٣) ينظر: تفسير ابن عطية (٥/ ١٤٥)، البحر المحيط في التفسير (٩/ ٥٠٨).
(٤) أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ١٤٦).

وأنه إذا كان بخُلُقه يلاينهم فينبغى ألَّا يتبسَّطوا معه متجاسرين، ولا يكونوا عن حدودهم زائدين (١).

٣. **النهي عن جهر مخصوص مقيد بصفة، وهو الجهر المنعوت بالمماثلة:**

استدل الزمخشري بهذه الآية على أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقًا حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة، وهو الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم، وهو الخلو من مراعاة أُبَّهَة النبوة وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرُّتب وإن جلَّت عن رتبتها (٢).

٤. **أن عدم احترام النبي صلى الله عليه وسلمالمشعر بالغضِّ منه أو تنقيصه صلى الله عليه وسلم والاستخفاف به أو الاستهزاء به ردة عن الإِسلام وكفر بالله**(٣).

٥. **الحذر من الأفعال التي تؤدي إلى حبوط الأعمال ومحق بركتها:**

ففي هذه الآيات بيان استعمال الأدب في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم، وعظم الجناية في ترك ذلك،

وما يُؤدِّي إلى حبوط العمل واستحقاق العقاب (٤).

٦. **لا يتناول النهى رفع الصوت الذي لا يتأذى به رسول الله صلى الله عليه وسلم:** وهو ما كان منهم في حرب، أو مجادلة معاند، أو إرهاب عدوٍّ، أو ما أشبه ذلك(٥).

---

(١) ينظر: لطائف الإشارات = تفسير القشيري (٣/ ٤٣٨).
(٢) ينظر: الكشاف (٤/ ٣٥٤).
(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٤٠٣).
(٤) تفسير السمعاني (٥/٢١٦).
(٥) تفسير الكشاف (٤/ ٣٥٢).

٧. حبوط الأعمال يكون بالكفر لا بالكبائر، وهذا لا يعني الاستهانة بها وبخطرها:

فالآية تضبط الانحراف الفكري لدى بعضهم، ممن تشرَّبت عقولهم بالأفكار الضالة، والمعتقدات الباطلة، وهذا منزلق خطير، يجب التحذير منه؛ بخاصة فئة الشباب، الذين تدعوهم الحماسة غير المنضبطة، والفهم غير السوي للنصوص إلى التأويل الفاسد، ويرتّبون على ذلك أحكامًا باطلة، ويذهبون أبعد من ذلك فيكفِّرون الناس بغير دليل، ثم يصل بهم الحال إلى استباحة الدماء والأعراض!! وقد احتجَّ بعضهم بهذه الآية بأن من عمل كبيرة فقد حبط جميع ما عمل من الحسنات(١)،

والصواب أن الكبيرة لا تبطل العمل ما لم يَكْفُر، وإنما ذكر هاهنا إبطال العمل، لأن في ذلك استخفافًا بالنبي صلى الله عليه وسلم ومن قصد الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم كَفَر (٢).

٨. أن من شؤم المعصية تهوين ارتكاب الكبائر، وقد يوصله ذلك إلى الكفر، فإن أساس كل خطير حقير:

فمن عواقب الاستهانة بفعل المعصية «أن يتأذى بشؤم تلك المعصية إلى أن يَهُوْن عليه ارتكاب الكبيرة، يستحقرها حتى يخفَّ عليه الكفر فيكفر؛ فتصير المعصية الأولى –وإن قلَّت– سببًا لحبوط ثواب أعماله، » (٣).

٩. أن الردة قد تتمكَّن من النفس ولا يشعر المرء بذلك، بسبب الاستهانة بالذنوب، وعدم الندم عليها:

(١) ممن قال بذلك الزمخشري. ينظر: الكشاف (٤/ ٣٥٥).
(٢) تفسير السمرقندي = بحر العلوم (٣/ ٣٢٣).
(٣) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٩/ ٣٢٥).

وهذا ما استنبطه الرازي من قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]؛ إذ ذكر أنها تشير إلى أن الردة تتمكن من النفس بحيث لا يشعر الإنسان، فإن من ارتكب ذنبًا لم يرتكبه في عمره تراه نادمًا غاية الندامة خائفًا غاية الخوف فإذا ارتكبه مرارًا يقلُّ الخوف والندامة ويصير عادة من حيث لا يعلم أنه لا يتمكَّن(١).

١٠. الحذر من عاقبة الأعمال التي قد يعملها المرء غفلة، من غير أن يُلق لها بالًا، كأن يعملها جريًا على عادته، فقد تكون سببًا لحرمان أعمال أخرى (٢).

١١. **الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم، من أسباب حصول الثواب وقبول الأعمال** (٣).

المبحث الثالث: الهدايات القرآنية في التعامل مع أهل الفسق والتثبت من أخبارهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦]، وهذا نداء ثالث ابتدئ به غرض آخر وهو آداب جماعات المؤمنين بعضهم مع بعض وقد تضافرت الروايات عند المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة عندما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى بني المصطلق ليأتي بصدقاتهم فلما بلغهم مجيئه، أو لما استبطأوا مجيئه، فإنهم خرجوا لتلقيه أو خرجوا ليبلغوا صدقاتهم بأنفسهم وعليهم السلاح، وأن الوليد بلغه أنهم خرجوا إليه بتلك الحالة وهي حالة غير مألوفة في تلقي المصدقين وحدثته نفسه أنهم يريدون قتله، على اختلاف الروايات خاف أن يكونوا أرادوا

(١) ينظر: تفسير الرازي (٢٨/ ٩٤).
(٢) ينظر ما ذكره أبو حيان في البحر المحيط في التفسير (٩/ ٥٠٨).
(٣) تفسير السعدي (ص٧٩٩).

قتله؛ إذ كانت بينه وبينهم شحناء من زمن الجاهلية فولى راجعًا إلى المدينة، وقد روي أن سبب نزول هذه الآية قضيتان أخريان، وهذا أشهر (١).

المطلب الأول: التفسير الإجمالي للنداء الثالث:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦]:

يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له، لئلا يحكم بقوله فيكون -في نفس الأمر-كاذبًا أو مخطئًا،

فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله ﷻ عن اتباع سبيل المفسدين (٢).

﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحجرات:٦]، أي: «لئلا تصيبوا قوما بجهالة، ومعنى الإصابة هاهنا: هو الإصابة من الدم والمال بالقتل والأسر والاغتنام»(٣).

﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦]: فتندموا على إصابتكم إياهم بالجناية التي تصيبونهم بها (٤).

المطلب الثاني: الهدايات القرآنية في النداء الثالث وأثرها في الرقي الأخلاقي:

تتوالى الهدايات القرآنية المنيرة في هذه النداءات الإلهية للمؤمنين، فيأتي هذا النداء الثالث في سورة الحجرات المباركة ليوجه المؤمنين إلى كيفية التعامل مع الأخبار، وخصوصًا الشائعات، وما يترتب عليها من أمور عظيمة، ويوضّح لهم الرؤية القرآنية الفريدة في إصلاح الفرد والمجتمع، والرقي بأخلاق المجتمعات لينعم الجميع فيها بالسكينة والسعادة،

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٢٨).
(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٧٠).
(٣) تفسير السمعاني (٥/ ٢١٧).
(٤) تفسير الطبري (٢٢/ ٢٨٩).

وفيما يأتي ذكر هذه الهدايات القرآنية المستنبطة من أفياء هذه النداء الجليل:

١- عدم قبول خبر الفاسق إلا بعد التثبت والتحقُّق، فيجب التريُّث وعدم التعجُّل؛ صونًا لكرامة الأفراد وحماية لأرواحهم وممتلكاتهم(١):

قال الزجاج: «وهذا دليل أنه لا يجوز أن يقبل خبر من فاسق إلا أن يتبَيَّن، وأن الثقة يجوز قبول خبرِه» (٢)، فإن جاءكم فاسق بخبر فتأنوا ولا تعجلوا إلى أن يتضح صدقه؛ لئلا تصيبوا إن عجلتم القضاء به قوما في نفوسهم وذراريهم وأموالهم بجهل منكم بحالهم في استحقاق ما تصيبونهم به (٣).وإنما كان الفاسق معرضًا خبره للريبة والاختلاق؛ لأن الفاسق ضعيف الوازع الديني في نفسه، وضعف الوازع يجرِّئه على الاستخفاف بالمحظور، وبما يخبر به في شهادة أو خبر يترتب عليهما إضرار بالغير أو بالصالح العام، ويقوِّي جرأته على ذلك دومًا إذا لم يتب ويندم على ما صدر منه ويقلع عن مثله، والإشراك أشد في ذلك الاجتراء لقلة مراعاة الوازع في أصول الإشراك (٤).ولا يقتصر الأمر على فاسق دون آخر، أو على نبأ دون نبأ، بل الأمر فيه بالعموم، بدليل تنكير الفاسق والنبأ، فأيُّ فاسق جاءكم بأيِّ نبإ. فتوقَّفوا فيه وتطلَّبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة(٥).

٢- صفات من لا يقبل خبره:

تعرض العلماء لذكر صفات هذا الفاسق الذي يتوقف في قبول خبره،

(١) ينظر: أيسر التفاسير للجزائري (٥/ ١٢٥).
(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/ ٣٤).
(٣) التيسير في التفسير، أبو حفص النسفي (١٣/ ٥٠٢).
(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٣١).
(٥) تفسير الكشاف (٤/ ٣٦٠).

فذكروا من صفاته: الخروج عن الطاعة، أو عن حدِّ المروءة، وقيل: هو الذي ألقى جلباب الحياء.

والفسوق: فعل ما يحرمه الشرع من الكبائر، وفسره بعضهم بالكاذب(١)، و«من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه» (٢).

وهذا التفسير قد لا يكون قويًّا؛ لأن كلام الكاذب الذي تبين كذبه لا شك في رده، وإنما يُتوقف في خبر الفاسق الذي ليس مشهورًا بالكذب، فالواجب عند خبر الفاسق، التثبت والتبين، فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه، عمل به وصُدِّق، وإن دلت على كذبه، كُذِّب، ولم يعمل به، ففيه دليل، على أن خبر الصادق مقبول، وخبر الكاذب، مردود، وخبر الفاسق متوقف فيه، ولهذا كان السلف يقبلون روايات كثير من الخوارج، المعروفين بالصدق، ولو كانوا فسَّاقًا (٣).

٣- **صفات الثقة الذي يقبل خبره:** وهو من لم تجرَّب عليه شهادَة زورٍ، ولا يُعْرَف بفِسقٍ، ولا جُلِدَ في حَدٍّ، وهو مع ذلك صحيح التمييز (٤).

الأمر بالتثبت في الأخبار عند الشبهة، أمرُ كذلك في الأفعال؛ ولهذا قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] (٥).

٤- قبول خبر الواحد إذا كان عدلًا:

يتناول العلماء عند ذكر هذه الآية مسألة مهمة،تتعلق بقبول خبر الواحد، وهي مسألة أصولية معروفة،

(١) لطائف الإشارات = تفسير القشيري (٣/ ٤٣٩).
(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٣/ ٣٥٠).
(٣) ينظر: تفسير السعدي (ص٨٠٠).
(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/ ٣٤).
(٥) ينظر: تفسير الماتريدي (٣/ ٣٣١).

قال الماتريدي: «ثم في الآية دلالة قبول خبر الواحد إذا كان عدلًا؛ لأنه لو لم يقبل خبره إذا كان عدلًا لم يكن لذكر الفسق فائدة سوى الشَّتم، والشَّتم سفه؛ فلا يجوز أن يوصف الله تعالى به فدل ذكر الفسق على أن هذا الحُكْم وهو رد الشهادة مختص باسم الفسق، وأن العدل لا يشاركه فيه» (١)، وذكر بعضهم أن الموسوم بالعدالة يجب أن يكون قد انتفت عنه تهمة الكذب في شهادته أو روايته، وهذا من مدلول مفهوم الشرط في قوله: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦] (٢)، وإن كان بعضهم قد قلل من قوَّة الاستدلال بهذه الآية على قبول خبر الواحد؛ بحجة أن هذا ليس موضع الكلام عنه (٣)،

ولا يسلَّم لهم بذلك، ففي الآية دليل قوي على ذلك، وهناك كلام طويل الذيل في هذه المسألة، ومتى يكون خبر الواحد حجة، ومتى لا يكون، محله كتب أصول الفقه (٤).

٥- **الأحكام وقبول الأخبار فيما بين الخلق لم توضع على الحقائق، وإنما وضعت على الظواهر**، وكذلك قبول الشهادات، والحكم بها، وجميع الشرائع التي جعلت في الناس إنما هو على الظواهر من الأحوال والأمور(٥).

٦- **استُدل بهذه الآية على رد القول بأن المسلمين كلهم عدول حتى تثبت الجرحة**؛ لأن الله تعالى أمر بالتبين قبل القبول، ولهذا امتنع كثير من العلماء من قبول رواية **مجهول الحال؛ لأنه يخشى أن يكون فاسقًا**، فيلزم

(١) تفسير الماتريدي (٩/ ٣٢٧).
(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٣٣).
(٣) ينظر: تفسير ابن عطية (٥/ ١٤٧).
(٤) ينظر: الفصول في الأصول للجصاص (٣/٦٣).
(٥) ينظر: تفسير الماتريدي (٩/ ٣٢٧، ٣٢٨).

الاحتياط (١)، وقَبِلها آخرون؛ لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق (٢).

٧- **الحذر من الاستغفال، وهذا يربي في المؤمنين الحس الأمني العالي:** فقد جاء التعبير القرآني ﴿إِن جَآءَكُمْ﴾ بحرف الشك، وفيه أنَّ على المؤمنين أن يكونوا على هذه الصفة، لئلا يطمع فاسق في مخاطبتهم بكلمة زور (٣).

٨- **تجنب ما يؤدي إلى الندم من الذنوب والمعاصي والتساهل في ذلك:** فالقرآن حريص على أن يجتنب المسلم الندم، وما يؤدي إليه؛ لأن «الندم: ضرب من الغم، وهو: أن تغتمّ على ما وقع منك تتمنى أنه لم يقع، وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام ولزام، لأنه كلما تذكر المتندِّم عليه راجعه» (٤).

٩- **الندم على فعل المعصية دليل على الإيمان، وحياة القلب:** ففي قوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦]: «مدح المؤمنين، أي: لستم ممن إذا فعلوا سيئة لا يلتفتون إليها، بل تصبحون نادمين عليها» (٥).

١٠- **وجوب التثبُّت فيما يُنقل عن العلماء، ولا سيما في هذا الزمن الذي كثرت فيه الأهواء، وكثر فيه التعصب، وصار الناس كأنهم يمشون في عمى:** «ومن هذا النوع ما ينسب إلى بعض العلماء من الفتاوى التي لم يتكلم بها إطلاقًا، أو تكلم ولكن فُهِمَ ما ينقل عنه خطأ، فإن بعض الناس قد يفهم من العالِم كلمة على غير مراد العالِم بها، وقد يسأل العالِم سؤالًا يتصوره العالِم

(١) ينظر: تفسير ابن عطية (٥/ ١٤٧).
(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٧٠):
(٣) تفسير الكشاف (٤/ ٣٦٠).
(٤) تفسير الكشاف (٤/ ٣٦٠، ٣٦١).
(٥) تفسير الرازي (٢٨/ ١٠٠).

على غير ما في نفس هذا السائل، ثم يجيب على حسب ما فهمه، ثم يأتي هذا الرجل وينشر هذا القول الذي ليس بصحيح» (١).

فخلاصة الغرض من النداء سلامة المجتمع وحفظ أمنه واستقراره فإن «**بقول الفاسق تظهر الفتن بين أقوام، ولا كذلك بالألفاظ المؤذية في الوجه، والغيبة الصادرة من المؤمنين**» (٢).

المبحث الرابع: الهدايات القرآنية المتعلِّقة بأخلاق المؤمنين مع بعضهم عند التعامل المباشر:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]:

«لما اقتضت الأخوة أن تحسن المعاملة بين الأخوين كان ما تقرر من إيجاب معاملة الإخوة بين المسلمين يقتضي حسن المعاملة بين آحادهم، فجاءت هذه الآيات منبهة على أمور من حسن المعاملة قد تقع الغفلة عن مراعاتها لكثرة تفشيها في الجاهلية» (٣).

المطلب الأول: التفسير الإجمالي للنداء الرابع:

﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [الحجرات: ١١]

ذكر الطبري اختلاف المفسرين في معنى السخرية، فقال بعضهم: هي سخرية الغنيّ من الفقير، نهي أن يسخر من الفقير لفقره،

وقال آخرون: بل ذلك نهي مِنَ الله مَن سَتَر عليه من أهل الإيمان أن يسخر ممن كشف في الدنيا ستره منهم، ثم قال: **والصواب من القول في ذلك**

(١) تفسير العثيمين: الحجرات – الحديد (ص٢٧).
(٢) تفسير الرازي (٢٨/ ٩٩).
(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٤٦).

عندي أن يقال: إن الله عمَّ بنهيه المؤمنين عن أن يسخر بعضهم من بعض جميع معاني السخرية(١).

﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحجرات: ١١]خص النساء بالذكر مع أن القوم يشملهم بطريق التغليب العرفي في الكلام؛ دفعًا لتوهم تخصيص النهي بسخرية الرجال؛ إذ كان الاستسخار متأصلًا في النساء (٢)، وقيل: «لأن النساء ليس لهن اختلاط مع الرجال حتى تجري السخرية بينهم، وإنما الاختلاط في الغالب بين الجنس يكون، فعلى ذلك جرى النهي بالسخرية»(٣). ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحجرات: ١١]:نهى الله عن اللمز، أي: لا يطعن بعضكم على بعض، وجعل اللامز أخاه لامزًا نفسه؛ لأن المؤمنين كرجل واحد(٤). «واللمز والهمز: العيب والعض من الإنسان» (٥)، ومنهم من يقول إن اللمز: هو الطعن باللسان، ومنهم من يقول: بالشدق والشفة، ومنهم من يقول: بالعين؛ وحاصله هو الطعن فيه (٦).

وفرَّق بعضم بين الهمز واللمز فقال علي بن سليمان: اللمز الطعن على الإنسان بالحضرة، والهمز في الغيبة.

وقال المبرد: اللمز يكون باللسان، والعين تعيبه وتجدد إليه النظر وتشير إليه بالاستنقاص، والهمز لا يكون إلا باللسان في الحضرة والغيبة وأكثر ما يكون في الغيبة (٧)، وفي كل الأحوال فالقرآن ينهى عن كل ما من شأنه انتقاص

(١) تفسير الطبري (٢٢/٢٩٨).
(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٤٧).
(٣) تفسير الماتريدي (٩/ ٣٣٣، ٣٣٤).
(٤) ينظر: تفسير الطبري (٢٢/٢٩٨، ٢٩٩).
(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/ ٣٦).
(٦) تفسير الماتريدي (٩/ ٣٣٤).
(٧) الهداية الى بلوغ النهاية (١١/ ٧٠٠٣).

الإنسان؛ إشارة أو قولًا، أو فعلًا، فما أجمل هذه التعاليم الربانية في السمو بأخلاق المؤمنين.﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ [الحجرات: ١١]أي: ولا تداعوا بالألقاب، واختلف أهل التأويل في الألقاب التي نهى الله عن التنابز بها، فقال بعضهم: هي الألقاب التي يكره النبز بها الملقَّب، وقال آخرون: بل ذلك قوم الرجل المسلم للرجل المسلم: يا فاسق، يا زان، وقال آخرون: بل ذلك تسمية الرجل الرجل بالكفر بعد الإسلام، والفسوق والأعمال القبيحة بعد التوبة (١).

قال الطبري: والذي هو أولى الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى المؤمنين أن يتنابزوا بالألقاب؛ والتنابز بالألقاب: هو دعاء المرء صاحبَه بما يكرهه من اسم أو صفة، وعمَّ الله بنهية ذلك، ولم يخصِّص به بعض الألقاب دون بعض، فغير جائز لأحد من المسلمين أن ينبز أخاه باسم يكرهه، أو صفة يكرهها(٢).﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ [الحجرات: ١١] أي: بئس الاسم أن يقول: يا يهودي أو يا فاسق بعد ما آمن وتاب، وقيل معناه: إن من فعل ما نهي عنه من السخرية واللمز والنبز فهو فاسق، فلا تفعلوا ذلك فتستحقوا اسم الفسوق (٣).﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]. الجملة «تذييل للمنهيات المتقدمة وهو تعريض قوي بأن ما نهوا عنه فسوق وظلم، إذ لا مناسبة بين مدلول هذه الجملة وبين الجمل التي قبلها لولا معنى التعريض بأن ذلك فسوق وذلك مذموم ومعاقب عليه، فدل قوله: ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ [الحجرات: ١١]، على أن ما نهوا عنه مذموم لأنه فسوق يعاقب عليه ولا تزيله إلا التوبة»(٤).

(١) ينظر: تفسير الطبري (٢٢/٢٩٩- ٣٠١).
(٢) تفسير الطبري (٢٢/٣٠٢).
(٣) ينظر: تفسير البغوي (٧/ ٣٤٤).
(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٤٩).

المطلب الثاني: الهدايات القرآنية في النداء الرابع وأثرها في الرقي الأخلاقي

تضمنت الآية جملة من الآداب التي يجب للمسلمين على بعضهم عند التلاقي والاجتماع، فنهاهم عن أمور غاية الخطورة؛ لأن في تجنبها ضمانًا لتآلف جميع أفراد المجتمع وسعادتهم، والأمة لا تكون قوية متماسكة، إلا إذا ساد الاحترام والتقدير بين جميع أفرادها، والمجتمع يتحاشى أفراده مثل هذه الأمور مجتمع قوي متماسك، ينعم بالأمن والسكينة والراحة والاطمئنان، إنه مجتمع (إنما المؤمنون إخوة)، مجتمع (الجسد الواحد)،

وهذه بعض الهدايات التي نستلهمها من هذا النداء الرابع

في هذه السورة المباركة العظيمة القدر والمكانة:

١- النهي عن إشاعة السخرية في المجتمع حفاظًا على الوئام العام والانسجام التام:

فظاهر الآية نهي للجماعة عن سخرية جماعة؛ لأن السخرية إنما تكون في الأغلب بين قوم وقوم، وقلما تقع بين الأفراد والآحاد؛ فعلى ذلك جرى النهي، ولكن يكون ذلك النهي للجماعة والأفراد والآحاد جميعًا (١).

الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه بالمحاكاة في الفعل والقول أو بالإشارة والإيماء،

وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة وفيه معنى الغيبة، والضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر، وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية في حقه من جملة المزاح (٢).

(١) تفسير الماتريدي (٩/ ٣٣٣).

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين (٣/ ١٣١).

٢- **التكبر هو الحامل على الاستهزاء والسخرية:**

فالمتكبر في أكثر الأمر يري جبروته على رؤوس الأشهاد، وإذا اجتمع في الخلوات مع من لا يلتفت إليه في الجامع يجعل نفسه متواضعًا، فذكرهم بلفظ القوم منعًا لهم عما يفعلونه (١)، والمستهزئ بغيره يرى فضل نفسه بعين الرضى عنها، ويرى نقص غيره بعين الاحتقار، إذ لو لم يحتقر غيره لما سخر منه (٢).

٣- **الستر أمر واجب، فلا يصبح الإنسان يحدث الناس بما ستره الله، فيهتك ستر الله عليه:**

ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾: الأمر بالستر عليهم وعلى أنفسهم، وألا يهتكوا سترهم (٣).

٤- **الخوف من العواقب الوخيمة للسخرية، حتى لا نبتلى بمثل ما ابتلي به المسخور منه،** قال ابن مسعود رضي الله عنه: «البلاء مُوَكَّل بالقول، لو سخرت من كلب خشيت أن أكون مثله»(٤).

٥- «**اللمز: ذكر ما يعدُّه الذاكر عيبًا لأحد مواجهة فهو المباشرة بالمكروه، فإن كان بحق فهو وقاحة واعتداء، وإن كان باطلًا فهو وقاحة وكذب**»(٥).

٦- **وجوب مناداة المؤمنين بأحب الأسماء إليهم:**

فالنبز هو: اللقب الذي يكرهه الرجل، فينبغي للمؤمن أن يخاطب أخاه بأحب الأسماء إليه (٦)، وما أجمل هذه الآداب وأرقاها وأسعدها، وقال ابن عباس

(١) تفسير الرازي (٢٨/ ١٠٨).
(٢) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، السفاريني (١/ ١٣١، ١٣٢).
(٣) تفسير الماتريدي (٩/ ٣٣٤).
(٤) تفسير السمرقندي (٣/ ٣٢٧).
(٥) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٤٨).

رضي الله عنهما: «أي: لا تَدْعُ أخاك بما يَكْرَه مِن الأسماء، ولكنِ ادْعُه بما يُحِبُّ، فإنَّ ذلكَ أَعْطَفُ لبعضكم على بعض، وأَحَبُّ إلى اللَّه تعالى»(١).

٧- **هناك ضوابط تضبط مسألة الألقاب، فالتلقيب المنهي عنه، وهو ما يكرهه المدعو**؛ لكونه تقصيرًا به وذمًّا له وشينًا، فأما ما يحبُّه مما يزينه وينوِّه به فلا بأس به، ولهذا كانت التكنية من السُّنَّة والأدب الحسن (٢).

وعلى هذا المعنى ترجم البخاري رحمه الله في (كتاب الأدب) من صحيحه، باب: "ما يجوز من ذكر الناس، نحو قولهم: الطويل والقصير"، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما يقول ذو اليدين»، وما لا يُراد به شَين الرجل (٣).

٨- «أن من دعا أخاه بلقب يكرهه لزمه اسم الفسق لمخالفة النهي»(٤).

٩- **الذي يزن عند الله خلوص الضمائر وتقوى القلوب وجمال السرائر، فلا يغتر بالظواهر**:

فقوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ كلام مستأنف قد ورد مورد جواب المستخبر عن العلة الموجبة لما جاء النهى عنه، والمعنى وجوب أن يعتقد كل أحد أن المسخور منه ربما كان عند الله خيرًا من الساخر، فينبغي أن لا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رثَّ الحال، أو ذا عاهة في بدنه، أو غير لبيق في محادثته، فلعله أخلص ضميرًا وأتقى قلبًا ممن هو على ضدِّ صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقَّره الله والاستهانة بمن عظَّمه الله(٥).

---

(٦) تفسير السمرقندي (٣/ ٣٢٧).

(١) التيسير في التفسير، أبو حفص النسفي (١٣/ ٥١٣).

(٢) تفسير الكشاف (٤/ ٣٦٩).

(٣) صحيح البخاري (٨/٤٥).

(٤) التفسير البسيط (٢٠/ ٣٥٨).

(٥) تفسير الكشاف (٤/ ٣٦٨).

١٠- **عدم التوبة ظلم:** لما كانت كل من السخرية واللمز والتنابز معاصي فقد وجبت التوبة منها، فمن لم يتب فهو ظالم: لأنه ظلم الناس بالاعتداء عليهم، وظلم نفسه بأن رضي لها عقاب الآخرة مع التمكن من الإقلاع عن ذلك فكان ظلمه شديدًا جدًّا. فلذلك جيء له بصيغة قصر الظالمين عليهم كأنه لا ظالم غيرهم لعدم الاعتداد بالظالمين الآخرين في مقابلة هؤلاء على سبيل المبالغة ليزدجروا (١).

١١- **الإيمان لا يناسبه الفسوق؛** «لأن المعاصي من شأن أهل الشرك الذين لا يزعهم عن الفسوق وازع»(٢).

فيجب الحذر من ازدراء الناس، ومن الاستهانة بالحقوق، ومن ترك الاحترام.

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٥٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٥٠).

المبحث الخامس: الهدايات القرآنية المتعلقة بمراعاة حقوق المؤمنين عند غيبتهم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]:

المطلب الأول: التفسير الإجمالي للنداء الخامس:

ينادي الله عباده المؤمنين في هذا النداء الأخير من هذه السورة المباركة آمرًا إياهم باجتناب بعض الأفعال التي تؤدي إلى زعزعة المجتمع، وإشاعة البغضاء والشحناء بين أفراده، وقد تضمن هذا النداء النهي عن عدة أمور، تحفظ للمسلم كرامته عند غيبته، نذكرها عرضًا في تفسير هذه الآية الكريمة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ﴾ [الحجرات: ١٢]:

ففي هذا تأديب عظيم يُبطل ما كان فاشيًا في الجاهلية من الظنون السيئة والتهم الباطلة وأن الظنون السيئة تنشأ عنها الغيرة المفرطة والمكائد والاغتيالات، والطعن في الأنساب، والمبادأة بالقتال حذرًا من اعتداء مظنون ظنًّا باطلًا(١)،

والظن المنهي عنه هو أن يظنوا بأهل الخير سوءًا إذا كانوا يعلمون أن الذي ظهر منهم خير، فأمَّا أهل السوء والفسق فلهم أن يظنوا بهم مِثْلَ الذي ظهر منهم(٢).

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات: ١٢]: أي: «ولا يتتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره، يبتغي بذلك الظهور على عيوبه، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٥١).
(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/ ٣٦).

من أمره، وبه فاحْمَدوا أو ذُمُّوا، لا على ما لا تعلمونه من سرائره»(١)، وفرق بعضهم بين التجسس والتحسس،

فقيل: بالجيم في الشرور، وبالحاء في الخير (٢).

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]: أي: ولا يقل بعضكم في بعض بظهر الغيب ما يكره المقول فيه ذلك أن يقال له في وجهه (٣)، فعن أبي هريرة، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ» (٤).

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]: أي: كما تكرهون هذا طبعًا، فاكرهوا ذاك شرعًا؛ فإن عقوبته أشد من هذا وهذا من التنفير عنها والتحذير منها(٥).﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]: «أي: وخافوا الله أن تُقْدموا على فعل ما نهاكم عنه من الظن السوء وتتبع عورات المسلم والتجسس على ما خفي عنك باغتياب أخيك المسلم وغير ذلك مما نهاك عنه»(٦).

المطلب الثاني: الهدايات القرآنية في النداء الخامس وأثرها في الرقي الأخلاقي: تضمن هذا النداء الإلهي العظيم هدايات قرآنية جليلة، تهذب أخلاق المؤمنين، وترشدهم إلى التعامل الأمثل مع بعضهم،

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٣٠٤).
(٢) تفسير الماتريدي (٩/ ٣٣٦).
(٣) تفسير الطبري (٢٢/ ٣٠٥).
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، حديث رقم (٢٥٨٩) ، (٨/٢١).
(٥) تفسير ابن كثير (٧/٣٨٠).
(٦) الهداية الى بلوغ النهاية (١١/ ٧٠٠٩).

وتحافظ على مجتمعهم من التصدع والتفكك،

وتتجلى هذه الهدايات في النقاط الآتية:

١. **ليس كل ظنٍ منهيًّا عنه، ولا كل الظن يكون إثمًا:** فيحتمل أن يرجع ما استثنى من الظن القليل الذي لا إثم فيه إلى الظن الحسن؛ إذ يجوز أن يظن بالإنسان الظن الحسن؛ ولا إثم فيه، إنما الأمر بالاجتناب إلى الظن بالسوء على غير تحقق أسباب أو غير تحقيق عين ذلك»(١)، وقال سفيان: «الظن ظنان: ظن فيه إثم، وظن ليس فيه إثم، فأما الظن الذي فيه إثم فالذي يتكلم به، وأما الظن الذي ليس فيه إثم، فما يضمره ولا يتكلم به»(٢).

٢. **سوء الظن بريد البغي وسبب العدوان:** «فمن عَدِم عفة القلب يكون منه التمني وسوء الظن اللذان هما أس كل رذيلة، لأن من تمنى ما في يد غيره حسده وإذا حسده عاداه، وإذا عاداه نازعه، وإذا نازعه ربما قتله. ومن أساء الظن عادى وبغى وتعدى»(٣).

٣. **مهما رأيت إنسانًا يسيء الظن بالناس طالبًا للعيوب فاعلم أنه خبيث الباطن:** «فيجب الاحتراز عن ظن السوء وعن تهمة الأشرار فإن الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا الشر ... فإن المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق»(٤).

٤. **من قواعد التعامل المهمة مع الأخبار:** «كل من أورد حديثًا فإما أن يخبر به عن علم أو عن غلبة ظن أو عن ظن وتخمين واهٍ فما يقال عن علم فمحمود بلا شك، وما كان عن غلبة ظن فقد

(١) تفسير الماتريدي (٩/ ٣٣٥).
(٢) تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين للسمرقندي (ص١٦٣).
(٣) الذريعة الى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني (ص ٢٢٤).
(٤) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٦).

يحسن وقد يقبح، وما كان عن ظن واهٍ فمذموم»(١).

٥. **وجوب الاحتراز من الوقوع في مواضع التهم** حتى لا يُظن بالمرء ظن السوء، وإن كان عالما ورعًا تقيًّا،

فعن صَفِيَّة رضي الله عنها أنها جاءت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم تزوره فِي المسجد، فلما رجعت رجع معها النبي صلى الله عليه وسلم، فمرَّ بهما رجلان من الأنصار، فَسَلَّمَا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثُمَّ نَفَذَا، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ». قَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا مَا قَالَ، قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا»(٢)،

٦. فانظر كيف أشفق صلى الله عليه وسلم على دينهما، وكيف أشفق على أمته فعلَّمهم طريق الاحتراز من التهمة حتى لا يتساهل العالم الورع (٣).

٧. **سوء الظن كالسُّوء من القول حرام**: «فكما يحرم عليك أن تحدِّث غيرك بلسانك بمساوئ الغير، فليس لك أن تحدِّث نفسك وتسيء الظن بأخيك»(٤).

٨. **الظن عليه تبنى القبائح، ومنه يظهر العدو المكاشحة**، والقائل إذا أوقف أموره على اليقين فقلَّما يتيقن في أحدٍ عيبًا فيلمزه به(٥).

(١) الذريعة الى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني (ص١٩٦).
(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٦).
(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: التكبير والتسبيح عند التعجب، رقم (٥٨٦٥)، (٥/٢٢٩٦).
(٤) إحياء علوم الدين (٣/ ١٥٠).
(٥) تفسير الرازي (٢٨/ ١١٠).

٩. **التجسس من آثار الظن يبعث على الكراهية، ويؤدي إلى نكد العيش وفساد الأخوة؛** لأن الظن يبعث عليه حين تدعو الظان نفسه إلى تحقيق ما ظنه سرًّا فيسلك طريق التجسس فحذرهم الله ﷻ من سلوك هذا الطريق، وقد يرى المتجسِّس من المتجسَّس عليه ما يسوءه فتنشأ عنه العداوة والحقد، ويَدْخل صدرَه الحرجُ والتخوُّفُ بعد أن كانت ضمائره خالصة طيبة، وذلك من نكد العيش، وذلك ثلم للأخوة الإسلامية لأنه يبعث على إظهار التنكر، ثم إن اطلع المتجسَّس عليه على تجسُّسِ الآخر ساءه، فنشأ في نفسه كرهٌ له، وانثلمت الأخوة ثلمة أخرى، ثم يبعث ذلك على انتقام كليهما من أخيه، وإذا علم أنه يترتب عليه مفسدة عامة صار التجسس كبيرة، ومنه التجسس على المسلمين لمن يبتغي الضر بهم (١).

١٠. **مثَّل الله الغيبة بأكل الميتة، لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه، كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه،** وقال ابن عباس: «إنما ضرب الله ﷻ هذا المثل للغيبة؛ لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر، وكذا الغيبة حرام في الدين وقبيح في النفوس»(٢).

١١. **الغيبة حرام بدلالة هذه الآية وآثار من السُّنَّة بعضها صحيح وبعضها دونه؛** وذلك أنها تشتمل على مفسدة ضعف في أخوة الإسلام، وقد تبلغ الذي اغتيب فتقدح في نفسه عداوة لمن اغتابه فينثلم بناء الأخوة، ولأن فيها الاشتغال بأحوال الناس وذلك يلهي الإنسان عن الاشتغال بالمهم النافع له وترك ما لا يعنيه.وهي عند المالكية من الكبائر، وجعلها الشافعية من الصغائر؛ لأن الكبيرة في اصطلاحهم فعل يؤذن بقلة اكتراث فاعله بالدِّين ورِقَّة الديانة

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٥٣).
(٢) تفسير القرطبي (١٦/ ٣٣٥).

كذا حدها إمام الحرمين.

فإذا كان ذلك لوجه مصلحة مثل تجريح الشهود، ورواة الحديث، وما يقال للمستشير في مخالطة أو مصاهرة فإن ذلك ليس بغيبة، بشرط أن لا يتجاوز الحد الذي يحصل به وصف الحالة المسئول عنها (١).

وهكذا تبني النداءات الربانية الخمسة في هذه السورة المباركة منظومة الأخلاق العالية،

وتحفظ الأخوة الإسلامية من الثلمات، وتجعل المجتمع عالي الشأن، يعيش أفراده في كنفه بسعادة وهناء، ويتجهون للبناء والإعمار وحسن الاستخلاف في الأرض، لأنهم سلموا من الأفات المزلزلة للاستقرار، الجالبة لنكد العيش، فسعدت أنفسهم، وعلا شأنهم، وتنافسوا في فعل الخيرات فعظمت خيراتهم، فعمَّ الخير وساد السلام.

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٥٦).

الخاتمة

١. أرست سورة الحجرات منظومة متكاملة من الأخلاق والآداب المتنوعة التي يحتاجها الفرد والمجتمع.

٢. أغلب الآداب والأخلاق المذكورة في سورة الحجرات تضمنتها نداءات المؤمنين الخمسة.

٣. تنوعت الهدايات القرآنية للنداءات الخمسة، وظهر أثرها جليًّا في المحافظة على مكارم الأخلاق، وتجسيد معاني الأخوة الإسلامية في أبهى صورها.

٤. ركز البحث على ذكر الصور الواقعية للهدايات القرآنية المستنبطة من النداءات الخمسة، في ضوء الثراء العلمي الرصين للأقوال التفسيرية.

ويوصي البحث: بالتركيز على النداءات الإلهية في القرآن واستخراج الهدايات القرآنية منها؛ وبحث وجوه الترابط والإحكام بينها.

المصادر والمراجع:

١. أحكام القرآن، للقاضي محمد بن عبد الله ابن العربي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٢٤هـ.
٢. إحياء علوم الدين، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار المعرفة، بيروت.
٣. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسى، أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط٥، ١٤٢٤هـ.
٤. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ.
٥. الإفصاح عن معاني الصحاح، أبو المظفر يحيى بن هُبَيْرَة الذهلي، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، ١٤١٧هـ.
٦. البحر المحيط في التفسير: محمد بن يوسف ابن حيان الأندلسي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ.
٧. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ.
٨. التفسير البسيط، علي بن أحمد الواحدي، عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود، ط١، ١٤٣٠هـ.
٩. التفسير الحديث، دروزة محمد عزت، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة، ١٣٨٣هـ.
١٠. تفسير الحجرات – الحديد، محمد بن صالح بن محمد العثيمين دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٢٥هـ.
١١. تفسير القرآن العظيم، عبد الرحمن بن محمد الرَّازِي، تحقيق: أسعد محمد، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، ط٣، ١٤١٩هـ.
١٢. تفسير الطَّبَرِي (جامع البيان في تأويل القرآن)، محمد بن جرير الطَّبَرِي، دار التربية والتراث – مكة المكرمة.
١٣. تفسير الرَّازِي (مفاتيح الغيب = التفسير الكبير)، محمد بن عمر الرَّازِي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

١٤. تفسير السمرقندي = بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي.
١٥. تفسير التستري، سهل بن عبد الله التُستري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دارالكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.
١٦. تفسير عبد الرزاق، عبد الرزاق بن همام، تحقيق: د. محمود محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.
١٧. تفسير القشيري (لطائف الإشارات)، عبد الكريم القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط٣.
١٨. تفسير مجاهد، مجاهد بن جبر، تحقيق: د محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي، مصر، ط١، ١٤١٠ هـ.
١٩. التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن، جامعة الشارقة، ١٤٣١هـ.
٢٠. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط١، ١٣٩٣.
٢١. تفسير الماتُرِيْدِيّ، محمد بن محمد الماتُرِيْدِيّ، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٦ هـ.
٢٢. تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، ط١، ١٣٦٥هـ.
٢٣. التيسير في التفسير، عمر بن محمد النسفي، تحقيق: ماهر أديب حبوش، دار اللباب، إسطنبول، بيروت، ط١، ١٤٤٠هـ.
٢٤. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ.
٢٥. تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين للسمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، تحقيق: يوسف علي بديوي، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ط٣، ١٤٢١هـ.
٢٦. الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ.

٢٧. صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه)، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، (دار ابن كثير، دار اليمامة) – دمشق، ط٥، ١٤١٤هـ.
٢٨. صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله)، لأبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٧٤هـ .
٢٩. غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، محمد بن أحمد بن سالم السفاريني ، مؤسسة قرطبة، مصر، ط٢، ١٤١٤هـ.
٣٠. الفصول في الأصول، أبو بكر أحمد بن علي الرَّازِي الجصاص الحنفي، وزارة الأوقاف الكويتية، ط٢، ١٤١٤هـ.
٣١. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمرو الزَّمَخشَرِيُّ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.
٣٢. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.
٣٣. مدارك التنزيل وحقائق التأويل: عبد الله بن أحمد النسفي، تحقيق: يوسف علي، دار الكلم، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.
٣٤. معالم التنزيل في تفسير القرآن، الحسين بن مسعود البَغَوِيّ، تحقيق: محمد النمر، وآخرون، دار طيبة، ط٤، ١٤١٧هـ.
٣٥. معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط٤، ١٤٠٨هـ.
٣٦. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البِقَاعِيّ، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
٣٧. الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا، جامعة الشارقة، مجموعة بحوث الكتاب والسنة،كلية الشريعة، جامعة الشارقة، ط١، ١٤٢٩هـ.